صور من العصر العباسي :

الخلفاء العباسيون والهدايا

للاستاذ صلاح الدين المنجد

— ٢ —

أما هدايا الفصد ، فلا تخرج عما ذكرت من قبل ، فكانوا يهدون الجوارى والصوانى والأقداح والجامات البلور والشمامات والعنبر والمسك .

فقد فصد الرشيد فأهدى إليه اليزيدى جام بلور ، وشمامات غالية ، وكتب إليه : « يا أمير المؤمنين ، تفاءلت بالشرب بالجام

بالأمس قد كنا سجينى طاعة ... واليوم من العيد بالإطلاق

ولا أدرى كيف وقع شوقى فى هذا وهو الذى باهى بنسكه وتبتله حين قال

وأشهد ما آذيت نفساً ولم أضر ... ولم أبغ فى جهرى وفى خطراتى

ولابت إلا كابن مريم مشفقاً ... على حسدى مستغفراً لعداتى

وعلى كل فإن هذه الحملة الظالمة التى قام بها الأدباء على رمضان لم تستطع أن تزحزح مكانته — ولو قليلا — فى النفوس ، بل زادتها رسوخاً وثباتا ، وخرج المجانين من المعركة يجرون أذيال الخيبة والهزيمة ، وكل امرىء بما كسب رهين

* * *

وبعد فما أردت بهذا العرض الموجز أن أزيد على رمضان ، فيعلم الله أنى أول الناس تفانيا فى محبته وإجلاله ، ولكنى قصدت الترفيه عن القراء فى وقت اندلعت فيه ألسنة الهجير فأحرقت الأفئدة وألهبت الجلود ، ومن يدرى لعل هؤلاء الأدباء يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، فرب متظاهر بالصوم والعبادة وبين جنبيه قلب مدنس بالمعاصى مثقل بالآثام ، ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها

خليلى ، قُطّاع الفيافى إلى الحمى ... كثير ، وإن الواصلين قليل

محمد رجب البيومى

بجام النفس ودوام الأنس ، والغالية للتلو فى السرور والازدياد من الحبور[1] » .

وافتصد المأمون مرة فأهدى إليه إبراهيم بن المهدى جارية معها عود ، ورقعة فيها :

عفوت وكان العفو منك سجية ... كما كان معقوداً بمفرقك الملك[2]

وفى مرة ثانية ، أهدت إليه (رياح) ارجة عنبر ، مكتوب عليها بماء الذهب بيتين من الشعر أعجب بهما ، فكافأها بمال كثير[3] .

وافتصد المعتصم فأهدت إليه (شمائل) صينية عقيق عليها قدح ، أسبل عليهما منديل مطيب ، مكتوب عليه بالعنبر ، أبيات شعر رقيق ، فلما قرأه أمر بإحضار اسحق بن ابراهيم ، وأمره أن يجعل له لحناً ، وأمر مسروراً بإخراجها من وراء الستارة ، ثم لم يزل يردد هذه الأبيات حتى أحكمتها شمائل وغنت فكأن سقط الدر يتناثر من فيها وأمر لإسحق بمال وللجارية بخمس وصائف وخمسة آلاف دينار[4] .

وافتصد ابراهيم بن المهدى ، فأهدى إليه اسحق بن ابراهيم الموصلى صوتاً من غنائه ، وأرسل غلامه فغناه به[5] .

وربما طلب الخليفة من خاصته أن يهدوه ، كما فعل المتوكل . فقد افتصد ، فقال لخاصته وندمائه اهدوا إلى يوم فصدى . فاحتفل كل واحد منهم فى هديته .

وأهدى إليه الفتح بن خاقان جارية لم ير الراؤون مثلها حسناً وظرفاً وكمالا . فدخلت ومعها جام ذهب فى نهاية الحسن ، ودن بلور لم ير مثله فيه شراب يتجاوز الصفات ، ورقعة فيها تهنئة بالشفاء فاستظرف المتوكل ذلك واستحسنه[6] .

ولعل ألطف هدية أهديت فى يوم فصد ، هى هدية أبى دلف فقد افتصد عبد الله بن طاهر ، فجمع أبو دلف ما أصاب فى

---

(١) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .
(٢) المحاسن والأضداد ص ٨١ .
(٣) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .
(٤) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .
(٥) الأغانى ج ٥ ص ٦٦ .
(٦) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ١٨١ .

السوق من الورد وأرسله هدية له[١] ، وقد أوردت هذا الخبر لظرفه ، رغم أن ابن طاهر ليس من الخلفاء .

* * *

أما هدايا العمال و لولاة والملوك فكثيرة . فكان كل وال يتفنن بإرسال الهدايا للخليفة ابتغاء مرضاته . فقد وجه يعقوب ابن الليث صاحب خراسان إلى المعتمد هدية من جملتها عشر بزاة منها باز أبلق لم ير مثله ، ومائة مهر ، وعشرون صندوقاً على عشرة بغال ، فيها طرائف الصين وغرائبه ، ومائة عود من مسك ، ومائة من عود هندى ، وأربعة آلاف درهم[٢] .

ولما قدم ابن الجصاص من مصر على المعتضد ، مرسلا من خمارويه ، كان معه هدايا من العين عشرين حملا على بغال . وعشرة من الخدم ، وصندوقان فيهما طرائف . وعشرون رجلا على عشرين نجيباً بالسروج المحلاة ، ومعهم جرار فضة ، وعليهم أقبية ديباج وسبع عشرة دابة بسروج ولجم ، منها خمسة بذهب والباقى بفضة ، وزرافة[٣] .

وقد يرسل إلى الخليفة كل غريب . ففى سنة ٢٩٩ وردت من مصر هدايا منها كما ذكر الصولى تيس له ضرع يحلب اللبن .

ووردت رسل أحمد بن اسماعيل بهدايا منها مذبة مرصعة بفاخر الجوهر ، وتاج من ذهب مرصع بجوهر له قيمة كبيرة . ومناطق ذهب مرصعة ، وربعة ذهب مرصعة[٤] .

ووردت هدايا ابن أبى الساج أربعمائة دابة ، وثمانون ألف دينار ، وفرش أرمنى لم ير مثله فى بساط طوله سبعون ذراعاً فى عرض ستين ذراعا ، عمل فى عشر سنين[٥] .

وفى سنة ٣٠٥ ، زمن المقتدر ، ورد على السلطان هدايا جليلة من أحمد بن هلال صاحب عمان . وفيها أنواع الطيب ، ورماح ، وطرائف من طرائف البحر ، وطائر أسود يتكلم بالفارسية والهندية أفصح من الببغاء ، وظباء سود[٦] .

(١) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .
(٢) مطالع البدور ج ٢ ص ١٣٠ .
(٣) المنتظم ج ٥ ص ١٣٨ .
(٤) ، (٥) المصدر السابق ج ٦ ص ١١٠ .
(٦) المنتظم ج ٦ ص ١٤٥

وفى سنة ٣١٠ هـ وصلت هدية ابن المادرائى الحسين بن أحمد من مصر ، وهى بغلة ومعها فلو ، وغلام طويل اللسان يلحق طرف لسانه أنفه[١] .

* * *

وكان ملوك الروم والفرنجة يهدون إلى الخلفاء العباسيين الهدايا العظام تودداً وتحبباً . فقد أهدى ملك الروم إلى المأمون مائتى رطل مسك ، ومائتى جلد سمور . فقال المأمون : ضاعفوها ليعلم عز الإسلام[٢] .

وأهدت ملكة الفرنجة إلى المكتفى بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفاً ، وخمسين رمحاً ، وخمسين فرساً ، وعشرين ثوباً منسوجاً بالذهب ، وعشرين خادماً صقلياً حسناً ، وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع ، وستة بازات وسبعة صقور ، ومضرب حرير[٣] .

وفى سنة ٣٢٦ هـ ورد كتاب من ملك الروم إلى الراضى . وكانت الكتابة بالرومية بالذهب ، والترجمة بالعربية بالفضة ، بطلب الهدنة . وفيه : « لما بلغنا ما رزقته أيها الأخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الأدب ، واجتماع الفضائل أكثر ممن تقدمك من الخلفاء ، حمدنا الله تعالى ... وقد وجهنا شيئاً من الألطاف ، وهى أقداح وجرار من فضة وذهب وجوهر ، وقضبان فضة ، وستور ، وثياب سقلاطون ، ونسيج ومناديل وأشياء كثيرة فاخرة » .

فكتب إليهم الجواب بقبول الهدية ، والاذن فى الفداء ، وهدنة سنة[٤] .

* * *

فهذه ألوان من الهدايا ، وتبيان لهذه العادة الاجتماعية التى كان لها شأن فى العصر العباسى ، الحافل بالعجائب والغرائب .

صبحى الدين المنجد

(١) المصدر السابق ص ١٦٧ .
(٢) أخبار الخلفاء ص ١٧٩
(٣) مطالع البدور ج ٢ ص ٢٩٣ .
(٤) المنتظم ج ٦ ص ٢٩٣ .